

قراءات في سطور المدينة التونسية

بقلم محمد الناصر النفاوي

عندما يغول الـ "م.و.ت." الأديب الجزائري علي الحمامي (1902-1949) مرة ثانية.

تهتم هذه القراءة بأمر يتصل بالمركز الوطني للترجمة (م.و.ت.) في تونس الذي أحدث سنة 2008 وجند مجموعة من الكفاءات التونسية الجامعية المشرفة والمراجعة يكاد المرء عندما يتصفح على الانترنت ، في موقع المركز ، أسماءها وألقابها ومسؤولياتها و... أن يتساءل إن لم يكن قد صرف في عملية التجنيد هذه ثروة حقيقية اقتطعت من ضريبة المواطن التونسي لينتظر، وهذا من حقه، نتائج تقارب إن لم تعادل هذا الجهد "الدعائي" أولا ومستوى هذا الإنفاق ثانيا. لقد علمتني التجارب في تونس ألا أتحدث في أمر إلا إذا كان في حوزتي ما يثبت ما أدعي وحتى مثل هذا الشرط لا يعد كافيا في كثير من الأحيان. ولذلك فإنني سأعلق بهذا الشرط بما أن "القراءات" الحالية لا تمس شخصا من يعد الحديث فيهم وعنهم حراما يعاقب عليه بإقامة الحد.

واليكم قصة " اغتيال" علي الحمامي ومن ثم قصة ما أعده إساءة إلي:

عربت Idris, roman nord-africain العلي الحمامي للمرة الأولى وسلمت المركز ، سنة 2008 ، نسخة رقمية منه. إنني لم أكن في يوم من الأيام مترجما محترفا كما أنني تعودت ألا أقرأ كتابا معربا إلا وسعيت الى الحصول على النسخة الأصل توكيا من اجتهاد المترجمين والمراجعين على حد سواء.

ولقد تسلمت نسخة من تعريبي إدريس في معرض كتاب تونس الدولي في أبريل 2010 ولكنني كنت مرهقا فاكتفيت بإلقاء نظرة سريعة على عدد من الصفحات هنا وهناك من دون أن أولي ما لاحظت منذ الصفحة الأولى من تصرف (مراجعة؟) أهمية كبيرة.

وفي بدايات جويلية الحالي سافرت ، هربا من السخونة في العاصمة، الى عين دراهم ، وهي قرية تونسية في جبال خمير (بكسر الخاء والميم المشددة) تقع على مرمى حجر من الحدود الجزائرية . وفي هذا المكان البعيد عن الضجيج فتحت فوق الطاولة الوحيدة التي أملك نسختي الأصلية والنسخة الصادرة عن الـ "م.وت." وبدأت أقارن الفصل الأخير في النسختين وسرعان ما تملكني نوع من الإحساس بالانزعاج.

إنني لا أود الإطالة في الحديث عن الأخطاء التي قد تكون مطبعية مثل أن أكون كتبت " نصر غايون على القيصر " فأقرأ " نصر غايون على القيصر " ومثل أن أكتب " اسم يربطه بالمشرق المتوسطي " فأقرأ " اسم يربطه بالمغرب المتوسطي " ومثل أن أكتب " فرغت السيور في الهواء " فأقرأ " فرغت السيور " (وردت مبنية للمجهول في مفتتح نص) الخ الخ.

وعلى العكس مما تقدم فإنني لاحظت تصرفا في ما كتبت ألحق ضررا بالمعنى. وهذه أمثلة ثلاثة على ما أدعي:

كتبت " وضعت الهجمة الامبريالية الفظة الحديثة الشعوب الخاضعة لها أمام اختيار ذي حدين لامفر منه " وأنا لا أدري لم أصر المراجع على أن يكتب ما يلي: " وضعت الهجمة الامبريالية الفظة الحديثة الشعوب الخاضعة لها أمام اختيار حتمي ذي حدين أحلاهما مر " خاصة إذا قرأ المرء ما تبقى من جمل.

كتبت " كانت آيات ياء سين تتحول أرقاما كما لو كانت تحصي الثواني ! أربع ! ثلاث ! اثنتان ! واحدة ! الأخيرة. وهذه المرة لم يكن الأسمر يغش في اللعب. وقد تحول العد التنازلي في نسختي الى عد تصاعدي ألحق الضرر بالمعنى.

أما الخلل الذي لا يغتفر فهو سقوط أجزاء من جمل وأحيانا مجموعة جمل (وأنا أتحدث دائما عن الفصل الأخير):

كتبت " هذا الشعب القنوع العنيد الأنوف اللازب النزق غالبا ولكن الصبور دائما المرتبط بأرضه التي محضها شغفا عنيفا والذي يضمّر الإجلال للأجداد ، الجسور جسارة العقاب الذي يعيش فوق الذرى والذي هو نظيره عذابا وشراسة، هذا الشعب يفوض أمره ، دائما ، عندما تتعثر خطاه ، الى سماواته الحامية " . ولقد سقط " والذي يضمّر " فألحق ذلك ضررا بالجملة.

وكتبت الجملة الطويلة التالية (27 سطرا) :

" كان الضباط يحملون مسدساتهم. ولم تكن توجد خيالة اذ لم يكن الصبائحية موضع ثقة تامة. (تكاثرت ضربات القنادق وأصبحت أدق توجيها. وكان عدد من الجنود يستخدمون حراهم

في الهجوم على المتظاهرين بمثل البساطة التي يمكن تصورها لو تعلق الأمر بتمثال تدريب. كان من الصعب جدا على المرء أن يتمالك نفسه. فالضربات والشتائم لم تكن لتساعد ولو قليلا في تهدئة الغليان الذي كان يزيد من حدته الى حد ما قيظ مستمر. كان سي تشفين يبذل ما وسعه من جهد ، يمينا وشمالا ، اجتهدا منه في اتقاء الاصطدام مهما كلف الأمر. وفي لحظة ما ارتمى فيلقي ذو سحنة ضبيعية ، وكان فظا جسيما قصيرا سمينا ونموذجا لهذا الفرنسي من جنوب اللوار الذي تعلن نظرتة الجامحة ويده الموشمتان عن بعض قدماء المحكومين بالمؤبد سرح من السجن ، على فاسي وأطاح به بضربة عنيفة من قندق البندقية على الرأس ثم حاول ، وهو يقلب السلاح، أن يشكه بحربته. وكان آخر ، وهو ذو شدة بلقاني وشعر صدئي اللون، يضري في ضرب طفل صاحب المظاهرة ويتلذذ بدوسه بحذائه العسكري. وبعيدا قليلا عن الاثنين كان نذلان متدليا الشاربين يطرقان رأس ريفي دامية وهو متعلق بعنق أحدهما.

اندفع القسم، وقد شجعه هذا الهرج والمرج، وسط قلب صف المتظاهرين الذي شكل في تراجعته مربعا في مواجهة العسكر. وحدث تشابك تعرضت فيه القبعات العسكرية والبوشمرير التي غرقت في أمواج الجمهور الهائجة ، في الحال ، للهجوم. ففي اللحظة التي كان فيها الريفي يتخبط بين الفيلقيين كان الأسمر الذي قلع جزءا من بلاط زقاق ملاصق للقيصرية قد هرع هو وجبليون آخرون لمساعدة الجبلي وقد قببت ذيل جلابته كومة من الأحجار.

لقد اشتهر الجبلي ، قديما ، بأنه ، وان كان راميا جيدا ، أفضل مقلاعي في الكتائب القرطاجنية. ولقد كان، غالبا، إن عدم المقلاع، يستخدم قطعا من الصخر بمهارة تعادل مهارة رامي القرص في الجيش المضاد. لقد كان حنبعل يثني على هذه الخصلة فيه. وهو، عندما يستنفذ آخر خرطوشة وتمنعه عقبات من استخدام الخنجر، وهذا هو سلاحه المفضل في الهجوم، يمكن أن يصبح خطيرا، بوجه خاص، إن استخدم الحجارة في هجماته. وما أكثر المدفعيين والرشاشين أو حتى المشاة اللانذنين بالمتاريس الذين جربوه ودفعوا حياتهم ثمنا لذلك !). ولذلك فان جبلي المظاهرة ، عندما

رأوا الفيالقين يستعملون القنادق والحرايا وأن عددا من أقاربهم بدؤوا يسقطون أرضا ، لم يجدوا بدا ، وقد أعوزتهم الأسلحة ، من استخدام الحجارة. ولقد استخدموها على أنجع وجه .
فما الذي تبقى من هذه الفقرة الطويلة في النسخة التي أصدرها الـ"م . و . ت . " ؟
لقد سقط منها ما حرصنا على وضعه بين هلالين.
إنني لا أتذكر متى قرأت عن ضجة حدثت بسبب خطأ "طفيف في نظري" تسرب الى أحد معاجم "لاروس" ولكن ما أذكره تماما ، لقربه التاريخي ، هو اضطرار بعض شركات السيارات اليابانية الى " إعادة" مئات الآلاف من سياراتها الى اليابان بسبب "متاعب تقنية" ظهرت عليها.
ونصحتني إلى الـ " م . و . ت . " هي ، ببساطة لا مزيد عليها ، أن يعيد طبع رواية "إدريس" مثلما تسلمها من معربها وهذا ، طبعا ، بعد تعويض من باعهم نسخا منها مشوهة لا يتحمل صاحب التعريب مسؤوليتها.